المؤتمر العالمي السادس
لبديع الزمان سعيد النورسي

العولمة والأخلاق

في ضوء رسائل النور

(البحوث العربية)

ISBN: 975-6438-14-2
Publication: Söz Basım
Year: 2002, İstanbul

في مرتكزات المدنيَّة الحاضرة
من المنظور النوريِّ

دراسة تحليليَّة

أ.د. قطب مصطفى سانو(*)

تقديم الدراسة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، ومن والاه، وبعد،

تروم هذه الورقة المتواضعة إلقاء الضوء على الأسس التي تقوم عليها المدنية الحاضرة وذلك من خلال التحليل العلميِّ الدقيق، والتصوير الرائع الذي توصل إليه رجل القدر في حياة الأمة الإمام بديع الزمان النورسي ـــ رحمه الله ـــ في عدد من كتبه وكتاباته ورسائله. فلئن وصف الواصفون المدنية الحاضرة بمختلف الأوصاف، وقدَّم المحلِّلون قديمًا وحديثًا صنوفًا متعددةً من التحليل والتصوير للمدنية الحاضرة، فإنَّ نظرة متمعنةً في التحليل النوريِّ لمرتكزات تلك المدنيَّة، تكاد أن تكون فريدةً في نوعه، وغير مسبوق إليه على الإطلاق. ذلك لأنَّ تحليله أوفى على كلِّ ما يجب توفره في الطروحات العلميَّة الأصيلة النادرة من الموضوعيَّة، والمنهجيَّة، والعلميَّة، والواقعيَّة، والشموليَّة. فضلاً عن أنَّ ما جادت به قريحته ـــ رحمه الله ـــ تعدُّ أوفى تحليلٍ وأدقِّها لأسس المدنيَّة الحاضرة.

إنَّ التأمل في طرحه ـــ رحمه الله ـــ يجد المرء أنَّه تمكن من كشف النقاب عن حقيقة تلك المدنية، وأهدافها، ومثلها، وغاياتها، ووسائلها، كما يجد أنَّ تحليله الرائع خلا من النظرة الحماسيَّة غير المؤصَّلة إلى الأشياء، وابتعد عن المبالغة في الوصف، والتوغل في الأوهام، والاكتفاء بإلصاق التهم بالآخرين لمجرد كونهم مخالفين في الملَّة أو المعتقد. ولهذا، فإنَّ طرحه جدير ـــ أيَّما جدارةٍ ـــ بمزيدٍ من التحقيق العلميِّ، والتأصيل العميق، كما

(*) عضو مجمع الفقه الإسلاميِّ الدوليِّ، ومدير المعهد العالميِّ لوحدة المسلمين، ومدير مكتب العلاقات الخارجيَّة، وأستاذ الفقه وأصول الفقه بالجامعة الإسلاميَّة العالميَّة – ماليزيا

أنَّه حريٌّ بأن يغدو ميدانًا ومجالاً للعديد من الدراسات الأكاديميَّة الأصيلة التي تبرز ما يتميَّز هذا التحليل من موضوعيَّة في الطرح، وسداد في المنهجيَّة، وتجرد في النقد، وواقعيَّة في الطرح، وشموليَّة في المحتوى والمضمون. ومن ثمَّ، فإنَّ هذه الورقة تأتي لتسلِّط الضوء ــ بصورة علميَّة منهجيَّة ــ على هذا المنظور النوريِّ لمرتكزات المدنيَّة الحاضرة، ولتبرز الأبعاد المنهجيَّة والعلميَّة والموضوعيَّة والواقعيَّة لهذا المنظور، كما تروم الورقة إلقاء الضوء على مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة من المنظور النوريِّ.

وبناءً على هذا، فإنَّ هذه الورقة تنتظم ثلاثة مباحث وخاتمة. أولهما: في مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في رسائل النور: عرض وتحليل، وأما المبحث الثاني، فيحاول بسط القول في مرتكزات المدنية الحاضرة في ضوء الواقع العالمي الراهن، وأما المبحث الثالث فيعنى بحديث مفصل عن مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة في رسائل النور، وأما الخاتمة، فإنَّها تتضمن خلاصةً لأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، أملاً في أن يغدو هذا المنظور النوريُّ المتكامل محلَّ دراسات علميَّة متخصصة وموسَّعة في أروقة الجامعات والكليَّات والمعاهد العليا في جميع أنحاء العالم.

وختامًا، لا يسعني في نهاية هذه التقدمة إلا أن أتقدم بجزيل شكري وعميق تقديري إلى منظِّمي هذا المؤتمر على ما يولونه من عناية كريمة ورعاية عظيمة لأفكار الإمام وإشراقاته المبدعة، فعسى الله أن يكلِّل جميع أعمالهم بالنجاح والتوفيق، وأن يغفر لإمامنا، ويجزيه عن الأمَّة الإسلاميَّة خير الجزاء، فقد كان ــ بحقٍّ ــ أمَّةً وحدها، بل كان رجل القدر في حياة الأمَّة.

المبحث الأول

مرتكزات المدنية الحاضرة في رسائل النور: عرض وتحليل

أولاً: تعريف بالمدنية الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة[1]:

قديمًا عني ابن خلدون بتقديم تعريف للمدنيَّة التي كان يعبِّر عنها بالحضارة، فعرَّفها، بأنَّها تعني " نهاية العمران، وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشرِّ، والبعد عن الخير"[2] ويعني العمران في لغته مطلق الاجتماع الإنساني في المدن والأمصار.. وحاول العديد من علماء الاجتماع والسياسة في القرون الثلاثة الأخيرة تعريفها، ومن أهمِّ تعريفاتها عند بعض علماء الغرب، تعريف ول ديورانت في كتابه قصَّة الحضارة، حيث عرَّفها بأنَّها عبارة

عن" .. نظام اجتماعيٍّ يُعينُ الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وتتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصاديَّة، والنظم السياسيَّة، والتقاليد الخلقيَّة، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنَّه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافعُ التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ، لا تنفكُّ الحوافز الطبيعيَّة تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.."[3]

وأما الدكتور شهبندر، فقد عني في كتابه القضايا الاجتماعيَّة الكبرى في العالم العربي، بتعريف المدنيَّة بأنَّها " حالةٌ من الثقافة الاجتماعيَّة تمتاز بارتقاءٍ نسبيٍّ في الفنون والعلوم وتدبير الملك، حيث جرت عادة الكتَّاب المتأخرين أنَّهم إذا أطلقوا كلمة "المدنيَّة" أرادوا بها المدنيَّة الحاضرة في مقابل الهمجيَّة التي كان عليها البشر في الأزمنة الخالية، أو التي لا تزال بعض الأقوام المنحطَّة تعيش في كنفها"[4].. وذهب الأستاذ محمد قدري إلى تعريفها في كتابٍ له بعنوان رسالة جليلة في التمدن، فقال: "التمدن هو اجتماع الناس في المدن والأمصارٍ للأنس والتعاون، فهو أخصُّ من العمران الذي هو مطلق الاجتماع الإنساني سواء في البوادي والقفار، أو في المدن والأمصار.."[5].

لئن كانت هذه التعريفات برمتها تعريفات للمدنيَّة الحاضرة بشكلٍ أو بآخر، فإنَّ ثمَّة باحثين معاصرين حاولوا أن يقدِّموا تعريفا للمدنيَّة الإسلاميَّة تمييزًا لها عن المدنية الحاضرة، ومن أولئك الدكتور نصر عارف في كتابه الحضارة، الثقافة، المدنية، وقال ما نصُّه".. الحضارة ــ أي المدنيَّة الإسلاميَّة ــ هي الحضور والشهادة بجميع معانيها التي ينتج عنها نموذجٌ إنسانيٌّ يستبطن قيم التوحيد والربوبيَّة، وينطلق منها كبعدٍ غيبيٍّ، يتعلق بوحدانيَّة خالق هذا الكون وواضع نواميسه وسننه، والمتحكم في تسييره، ومن ثمَّ، فإنَّ دور الإنسان ورسالته هي تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه، وتحسينها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق تمام التمكين عليها، والانتفاع بخيراتها، وحسن التعامل مع المسخَّرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها، لأنَّها مخلوقات تسبِّح بحمد الله، أو رزق لا بدَّ من حفظه وصيانته، وكذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان في كلِّ مكانٍ على ظهر الأرض، أساسها الأخُوَة والأُلْفة، وحبُّ الخير، والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة.." [6]

وثمَّة محاولاتٌ وتعريفاتٌ عديدة للمدنيَّة الإسلاميَّة، وقبلها للمدنيَّة الحاضرة، بَيْدَ أنَّ المقام لا يتسع لسردها، وما أوردناه من تعريف يكفي لإعطاء تصور عامٍّ عن مفهوم مصطلح المدنيَّة الحاضرة، ومصطلح المدنيَّة الإسلاميَّة في الكتابات الحديثة والقديمة.

وبطبيعة الحال، خلت التعريفات العامَّة من الإشارة إلى الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة، ولم تشر إلى مرتكزات هذه المدنيَّة، كما أنَّها اكتفت بالإشارة إلى محاسنها، وكونها مخالفةً للحياة الهمجيَّة الغالبة على ساكني البوادي والقفار. وأما تعريف المدنية الإسلاميَّة التي ذكرها الدكتور نصر، فإنَّه قد اشتمل على إشارة بصورة غير مباشرة إلى قضايا يمكن اعتبارها أهمِّ مرتكزات للمدنيَّة الإسلاميَّة، غير أنَّ استرساله في الشرح والتفصيل والتوضيح أخرج التعريف من أن يكون تعريفًا علميًّا إلى كونه تصورًا عامًّا عن المدنيَّة الإسلاميَّة وغايتها، والأساس الذي تقوم عليه.

وأيًّا ما كان الأمر، فإنَّنا نودُّ أن نقرِّر القول بأنَّنا لم نحظ بالوقوف على تحديد علميٍّ دقيقٍ لكلتا المدنيَّتين في كتابات الإمام، ولكنَّ ذلك ـــ لا يعني بطبيعة الحال ـــ أنَّ رسائله وكتبه خلت من التعرض لأهم الموضوعات التي يمكن أن يتشكَّل منها تعريفٌ دقيقٌ لكلتا المدنيَّتين؛ بل إنَّ تأملاً فيما أورده الإمام من تحليلٍ لمرتكزات كلتا المدنيَّتي، يمكن تشكيل تعريفٍ لهما بصورة دقيقة. بل إنَّ نظرة متفحصةً في أسس المدنيَّة الحاضرة التي ذكرها الإمام النورسي، تمكِّننا من إعادة صياغة سائر التعريفات والتصورات التي تحدَّث عنها الأقدمون والمعاصرون عن المدنيَّة الحاضرة، كما أنَّ تأملاً دقيقًا في مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة التي أصَّل فيها القول كفيلٌ بأن يقف الأمر على حقيقة هذه المدنية وغايتها، وأساسها، ودستورها. .

ثانيًا: عرض مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في رسائل النور:

في غمرة الهزائم التي توالت على الأمَّة الإسلاميَّة في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلاديِّ إبَّان الحربين العالميَّتين، ومع شدَّة انبهار المنهزمين والمغلوبين من أبناء الأمَّة الإسلاميَّة بكلِّ ما تقدِّمه المدنيَّة الحاضرة من أفكار ومناهج وأساليب تنطوي على الكثير من السراب والوهم، وفي أثناء تضارب وتناقض مواقف أهل العلم من أبناء الأمَّة من المدنيَّة الحاضرة، فهم ما بين مُعْجَبين بها، ومُغْرَمين بتمجيدها وتقليدها، وبين رافضين لها جملةً وتفصيلاً، وناكرين جميع محاسنها، حاول الإمام النورسي ـــ رحمه الله ـــ تعريف الأجيال بالوجه الحقيقيِّ لهذه المدنية منصفًا إيَّاها، ومفرِّقًا في الوقت نفسه بين محاسنها ومساوئها، كما أنَّه ألقى بظلالٍ وارفٍ من التحقيق والتوضيح على الهدف الأسمى والغاية المثلى، والدستور الأعلى، والمقصد الأعظم الذي تهدف المدنيَّة الحاضرة إلى

تحقيقه، وتسخِّر كافَّة إمكاناتها وإنجازاتها من أجل تمكين مرتكزاتها وفرضها على العالم أجمع.

وتمهيدًا لنظرة تحليليَّة في ما انتهى إليه الإمام ـــ رحمه الله ـــ من ضبطٍ محكمٍ لأسس المدنيَّة الحاضرة، نرى أن نورد عددًا من النصوص التي أودعها بيانًا وتوضيحًا لتلك الأسس، حيث إنَّه عني ـــ رحمه الله ـــ بتأصيل القول في تلك الأسس والمرتكزات في عددٍ من مؤلَّفاته ورسائله القيِّمة، ففي كتابه الكلمات، قال ما نصُّه: ".. المدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها أنَّ ركيزة الحياة الاجتماعيَّة البشريَّة هي "القوَّة"، وهي تستهدف " المنفعة" في كلِّ شيءٍ، وتتخذُّ " الصراع" دستورًا للحياة، وتلتزم ب"العنصريَّة" والقوميَّة السلبيَّة رابطة للجماعات. وغايتها هي "لهو عابث" لإشباع رغبات الأهواء، وميول النفس التي من شأنها تزييد جموح النفس، وإثارة الهوى. ومن المعلوم أنَّ شأن "القوة" هو التجاوز، وشأن " المنفعة" هو التزاحم، إذ هي لا تفي بحاجات الجميع وتلبية رغباتهم. وشأن "الصراع" هو التصادم، وشأن "العنصريَّة" هو التجاوز حيث تكبر بابتلاع غيرها.."[7]

وأما في كتابه صيقل الإسلام، فقد زاد هذه الأسس توضيحًا وتحقيقًا وتأصيلاً، حيث قال ما نصُّه في معرض إجابته عن سبب رفضه المدنيَّة الحاضرة: ".. قال أحدهم من المجلس: لم ترفض هذه المدنيَّة؟ قلت: لأنَّها تأسَّست على خمسة أسسٍ سلبيَّة: فنقطة استنادها هي: القوة، وهذه شأنها: الاعتداء. وهدفها وقصدها: المنفعة، وهذه شأنها: التزاحم. ودستورها في الحياة: الجدال والصراع، وهذا شأنه: التنازع. والرابطة التي تربط المجموعات البشريَّة هي: العنصريَّة، والقوميَّة السلبيَّة التي تنمو على حساب الآخرين. وهذه شأنها: التصادم، كما نراه. وخدمتها للبشريَّة خدمة فاتنة جذَّابة هي: تشجيع هوى المنفعة، وإثارة النفس الأمَّارة، وتطمين رغباتها، وتسهيل مطالبيها. وهذا الهوى شأنه: إسقاط الإنسان من درجة الملائكيَّة إلى درك الحيوانيَّة الكلبيَّة. وبهذا تكون سببًا لمسخ الإنسان معنويًّا. فمعظم هؤلاء المدنيِّين لو انقلب باطنهم بظاهرهم لوجد الخيال تجاه صور الذئاب، والدببة، والحيَّات، والقردة، والخنازير. ولأجل هذا، فقد دفعت المدنية الحاضرة ثمانين بالمائة من البشريَّة إلى أحضان الشقاء، وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادة مموَّهة زائفة. وظلَّت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علمًا أنَّ السعادة تكون سعادةً عندما تصبح عامَّة للكلِّ أو للأكثريَّة، بيْدَ أنَّ سعادة هذه المدنيَّة هي لأقل القليل من الناس.."[8]

فلئن أوسع الإمام ــ رحمه الله ــ مرتكزات المدنية الحاضرة في هذا الكتاب جانب التفصيل والتوضيح في هذا الكتاب وقبله في كتاب الكلمات، فإنَّه عني بذكر تلك الأسس بصورة مختصرة في كتابه المكتوبات، فقال ما نصُّه: ".. تأسَّست (أي المدنيَّة الحاضرة) على خمسة أسسٍ سلبيَّة: 1ــ نقطة استنادها وركيزتها: القوة، وهذه شأنها: التجاوز والاعتداء. 2ــ هدفها وقصدها: المنفعة، وهذه شأنها: التزاحم. 3ــ دستورها في الحياة: الجدال والصراع، وهذا من شأنه: التنازع. 4ــ رابطتها بين الكتل البشريَّه هي العنصريَّة، والقوميَّة السلبيَّة التي تنمو وتتوسَّع بابتلاع الآخرين، وشأنها التصادم الرهيب. 5ــ خدمتها للبشريَّة خدمة جذَّابة: تشجيع الهوى والهوسات، وتلبية رغبات النفس الأمَّارة، ذلك الهوى الذي هو سبب لمسخ الإنسان مسخًا معنويًّا.."[9] وثَمَّة كتب ورسائل عديدة للإمام لم تخل من الإشارة إلى هذه الأسس بصورة مباشرة وغير مباشرة، كما أنَّه ــ رحمه الله ــ أولى كلَّ واحد من هذه الأسس جانب التحقيق والتأصيل والتفصيل، مما يعبِّر عن عميق فهمه لهذه الأسس وما يترتَّب عليها من مسائل وقضايا.

ثالثًا: في تحليل مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في رسائل النور:

بدءً بذي بدء، نودُّ أن نبادر إلى تقرير القول بأنَّ نقد الإمام النورسي ــ رحمه الله ــ لأسس المدنيَّة الحاضرة، ينصرف إلى الأسس الماديَّة التي ترتد إليها جميع مساوئ هذه المدنيَّة، وأما الجوانب العلميَّة في هذه المدنيَّة، فإنَّها محلُّ ترحيب وقبول عنده، وفي هذا يقول الإمام حاثًّا على أهميَّة الاستفادة من حسنات هذه المدنيَّة، وذلك في معرض إجابته على من سؤال وجِّه إليه: " (قال له السائل).. كيف تشير إلينا بمحبة اليهود والنصارى، مع أنَّ القرآن الكريم ينهى عن ذلك بقوله تعالى (**لا تَتَّخذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ**) "المائدة:51 ".. (فأجاب الإمام قائلاً) كما يلزم أن يكون الدليل قطعي المتن، يلزم كذلك أن يكون قطعيَّ الدلالة، مع أنَّ للتأويل والاحتمال مجالاً، لأنَّ النهي القرآنيَّ ليس بعامٍّ بل مطلق. والمطلق قد يقيَّد. والزمان مفسِّر عظيم؛ فإذا ما أظهر قيده، فلا اعتراض عليه . وأيضًا، إن كان الحكم قائمًا على المشتقِّ، فإنَّه يفيد عليَّة مأخذ الاشتقاق للحكم. فإذًا، المنهي عنه في هذه الآية الكريمة، هو محبَّتهم من حيث ديانتهم اليهوديَّة والنصرانيَّة. وأيضًا لا يكون المرء محبوبًا لذاته، بل لصفته وصنعته، لذا، فكما لا يلزم أن تكون كل صفة من صفات المسلم مسلمةً، كذلك لا يلزم أن تكون كل صفات الكافر وصنعته كافرةً أيضًا. فعلى هذا، لِمَ لا يجوز اقتباس ما استحسنَّاه من صفةٍ مسلمةٍ، أو صنعةٍ

مسلمة فيه؟ فإن كانت لك زوجة كتابيَّة، لا شكَّ أنَّك تحبُّها.."[10]. ويؤكِّد المفكِّر الإسلاميُّ المعاصر الأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد وهو أحد المطلِّعين على فكر الإمام النورسي على هذا الأمر، فيقول: "..وأما موقف الإمام النورسي من الجوانب العلميَّة من الحضارة الغربيَّة، فهو موقف المسلم الذي فرض عليه الإسلام، أن يتحرَّك لاكتشاف قوانين الحياة، والاستفادة منها لإقامة الحضارة، وبناء التقدم. ولذلك، فقد دعا ــ رحمه الله ــ المسلمين للأخذ بأسباب الحضارة الصناعيَّة، لأنَّها من ضرورات إقامة الحياة القويَّة.. ويؤكِّد النورسي أنَّ تجديد المجتمعات الإسلاميَّة يحتاج إلى تبني "التقنية" الحديثة، مع المحافظة على الأصالة والقيم الذاتيَّة، فينبغي اتِّخاذ اليابان مثلاً في أخذهم الحضارة الغربيَّة، مع احتفاظهم بمقوماتهم.."[11] وبناءً على هذا، فإنَّ ما سنورده من حديث مفصَّلٍ عن مرتكزات المدنيَّة الحاضرة، ينصرف إلى الأسس الماديَّة التي تقوم عليها هذه المدنيَّة، ولا يمسُّ بأي حالٍ من الأحوال الجوانب العلميَّة المفيدة من المدنيَّة. وعليه، فلنعد لنقرِّر بأنَّه إذا كان الإمامُ ــ رحمه الله ــ عني بتكرار الحديث عن مرتكزات المدنيَّة في العديد من كتبه ورسائله، فإنَّه استفرغ طاقته في تفصيل القول ــ بصورة علميَّة ومنهجيَّة وموضوعيَّة ــ في جميع الأسس السلبيَّة التي عدَّها مرتكزاتٍ للمدنيَّة الحاضرة، كما أنَّه بذل ما وسعه من جهدٍ في تعريف الأجيال بالآثار المؤلمة التي نجمت ــ ولا تزال ــ تنجم عن هذه المدنية لقيامها وانبثاقها من تلك المرتكزات والأسس، وفضلاً عن ذلك، فإنَّه أصَّل القول في الأسس المنطقيَّة والعلميَّة والواقعيَّة التي اعتمد عليها في صياغة مرتكزات هذه المدنيَّة الحاضرة. ولعلَّ نظرة متفحصة في تلك الأسس العلميَّة تزيدنا بيانًا وتوضيحًا للآثار السلبيَّة الناجمة عن ارتكاز المدنيَّة الحاضرة على تلك الأسس الخمسة، إذ إنَّ تلك المرتكزات تعدُّ أهمَّ الأسباب وراء إثارة الحروب، والإخلال بالأمن العالميِّ المنشود، وزعزعة السلام الدوليِّ الشامل، كما أنَّها أسهمت ولا تزال تسهم في تعميق الفجوة والجفوة بين الشعوب، وتقسيم العالم إلى عالمٍ متقدمٍ يحسب سواه لقمة عيش، وخدمٍ يجب عليهم إرضاءه، وإلى عالمٍ متخلف يجب عليه الركون إلى تبعيَّة العالم المتقدم وإرضائه بكافَّة السبل الممكنة. وفضلاً عن هذا، فإنَّ هذه الأسس السلبيَّة للمدنيَّة هي التي جعلت ثروات العالم وخيراته تنحصر في أيدي شرذمة قليلة جشعة وبشعة، غاياتها امتصاص دماء وأتعاب الأغلبيَّة الساحقة من شعوب العالم، وزيادة حياة السواد الأعظم من سكان الكوكبة الأرضيَّة شقاءً وتعاسةً وتخلفًا وتقهقرًا واضطرابًا. إنَّ نظرةً متمعنةً ومركِّزةً فيما انتهى إليه الإمام من تحليل ووصفٍ دقيقين موضوعيِّين لمرتكزات المدنيَّة

الحاضرة، تهدي المرء إلى قناعة تامَّة بأنَّ الإمام التزم في طرحه بأعلى درجات الموضوعيَّة والمنهجيَّة والواقعيَّة والتجرد في الطرح والتحليل والتأصيل. فقد راعى ـــ رحمه الله ـــ في طرحه التوقيت الزمنيَّ المناسب لصياغة هذه الأسس السلبيَّة التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة، كما أنَّه اعتدَّ بالظروف الفكريَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة التي أَلَّمت بالعالم نتيجة غلبة هذه المدنيَّة وتمكينها في الأرض، فضلاً عن ذلك، فإنَّه أوسع الآثار السلبيَّة الناجمة عن المدنيَّة الحاضرة نتيجة قيامها على تلك الأسس جانب التحقيق والتحليل والتفصيل. الأمر الذي جعل طرحه طرحًا موضوعيًّا وواقعيًّا، منبثقًا عن معايشة حقيقيَّة للمدنية الحاضرة، ودراية عميقة بتاريخها، وأهدافها، وأسسها، ومآلاتها.

فبالنسبة للتوقيت الزمنيِّ الذي اختاره الإمام للبوح عن هذه المرتكزات، فإنَّه يعود إلى ما بعد الحرب العالميَّة الأولى التي كشفت النقاب عن حقيقة المدنيَّة الحاضرة، وسلَّطت الضوء على غاياتها وأهدافها وأسسها بصورة علميَّة وواقعيَّة لا تقبل مراوغة ثعلبيَّة أو جدالاً بيزنطيًّا. وفي هذا يقول الإمام النورسي مشيرًا إلى الفترة الزمنيَّة التي اختارها لتأصيل القول في أسس المدنيَّة الحاضرة: "..كنت في أيلول سنة 1919م أتقلَّب في اضطراب شديد من جرَّاء اليأس البالغ الذي ولَّدته حوادث الدهر. كنت أبحث عن نور بين هذه الظلمات المتكاثفة القاتمة.. لم أستطع أن أجده في يقظة هي رؤيا في منام. بل وجدته في رؤيا صادقة هي يقظة في الحقيقة. سأسجِّل هنا تلك النقاط التي اُستُنطِقَتها، وأُجْرِيَت على لساني من كلام دون الخوض في التفاصيل. وهي كالآتي: دخلت عالم المثال في ليلة من ليالي الجمعة. جاءني أحدهم، وقال: يدعوك مجلس موقر مهيب منعقد لبحث مصير العالم الإسلاميِّ، وما آلت إليه حاله. فذهبت، ورأيت مجلسًا منوَّرًا قد حضره السلف الصالحون، وممثَّلون من العصور، من كلِّ عصرٍ ممثَّلٌ.. لم أر مثيلهم في الدنيا.. فتهيَّبت، ووقفت في الباب تأدبًا وإجلالاً.. قال أحدهم من المجلس: لم ترفض الشريعة هذه المدنيَّة؟ قلت: لأنَّها تأسَّست على خمسة أسسٍ سلبيَّة.."[12].

إنَّ النظر العلميَّ المنصف في هذا التوقيت الدقيق لهذا الحوار الإيمانيِّ بين الإمام ونفسه، نجد أنَّه كان موضوعيًّا وواقعيًّا في اختيار هذه الفترة الزمنيَّة المحرجة والمؤكِّدة أيَّما تأكيد الأسس السلبيَّة التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة، والتي أكَّدتها تلك الحرب المشؤومة التي أتت على الأخضر واليابس، وزادت البشريَّة تعاسةً وشقاءً. وليس من شكٍّ في أنَّه ما كان من الممكن علميًّا قبول أيِّ حديث علميٍّ واقعيٍّ عن سلبيَّة تلك المدنيَّة قبل الآثار والحوادث الجسام التي نتجت عن الحرب العالميَّة الأولى، بل كان يوصف كلُّ الأحاديث

عن سلبيَّة تلك المدنيَّة بأنَّه حديثٌ خياليٌّ ليس له واقعٌ ملموسٌ يمكن الاحتكام إليه، ومن المحال أن يتقبَّل السواد الأعظم من سكان العالم نقد تلك المدنيَّة والتبرؤ منها جملةً وتفصيلاً. وبناءً على هذا، فإنَّه يمكننا الخلوص إلى القول بأنَّ التوقيت الزمنيَّ لصياغة أسس المدنيَّة الحاضرة كان تقريرًا وتأكيدًا لموضوعيَّة الإمام وواقعيَّته في طرحه.

وأما بالنسبة للظروف الفكريَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة العويصة التي عرفها العالم إبَّان الحرب العالميَّة الأولى، فكانت هي الأخرى بمثابة تقريرٍ لموضوعيَّة الإمام ومنهجيَّته في الطرح، ذلك أنَّه انجلى للعالم ـــ بصورة لا تقبل النقاش ـــ الركيزة الاجتماعيَّة التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة، كما مثلت أمام البشريَّة الغاية القصوى والهدف القريب والبعيد لتلك المدنيَّة، وزاد العالم معرفةً بمنهج تلك المدنية في فرض توجهاتها ومنطلقاتها وقناعاتها، وفضلاً عن ذلك، فإنَّ العالم أدرك البعد العنصريَّ وحبَّ السيطرة الذي يحرِّك تلك المدنيَّة ويوجِّه مسارها، ويحدِّد منهجها في التعامل مع المخالفين والمعارضين لها. وفي هذا يقول الإمام النورسي مشيرًا إلى تلك الظروف والأحوال والأهوال الكئيبة التي عرفتها البشريَّة بعد الحرب العالميَّة الأولى: ".. ولأجل هذا، فقد دفعت هذه المدنيَّة الحاضرة ثمانين بالمئة من البشريَّة إلى أحضان الشقاء، وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادة مموَّهة زائفة. وظلَّت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك.. ثم إنَّه بتحول الهوى الطليق من عقاله، تحوَّلت الحاجات غير الضروريَّة إلى ما يشبه الضروريَّة، إذ بينما كان الإنسان محتاجًا إلى أربعة أشياء (يقصد السكن، والمأكل والمشرب، والملبس) في حياة البداوة والبساطة، إذا به في هذه المدنيَّة يحتاج إلى مئة حاجة، وهكذا أَرْدَتْه المدنيَّة فقرًا مدقعًا.. ثمَّ لأنَّ السعي والعمل لا يكفيان لمواجهة المصاريف المتزايدة، انساق الإنسان إلى مزالة الخداع والحيلة وأكل الحرام. وهكذا فسد أساس الأخلاق.. ولقد قاءت هذه المدنيَّة وحشيَّةً فاقت جميع القرون السابقة.."[13].

إنَّ هذه الأهوال المدمِّرة الناتجة عن الحرب العالميَّة الأولى، تمثِّل تقريرًا صادقًا وتأكيدًا أمينًا لما طرحه الإمام، ذلك أنَّ منطق القوة غدا عشية انتصار المدنيَّة الحاضرة هو المنطق الأعلى والأعظم، كما أنَّ منطق المنفعيَّة والمصلحيَّة أصبح هو المنطق الذي يجب المآل إليه والاعتماد إليه، وأما منطق العنصريَّة والتعصب المقيت لمن آمن بهذه المدنية، غدا هو المنطق الأوحد الذي لا يقبل سواه في تحديد الصديق من العدو، وتوثيق عرى التعاون والترابط والتساند بين الشعوب. وبالنسبة لتشجيع الهوى وتقنين صنوف الممارسات الخلقيَّة المنحلَّة والفساد الاجتماعيِّ، أمسى أسلوب حياة تدعو المدنية الحاضرة إلى

التمسك به والعمل بمقتضاه، فليس عيبًا أن يتزوج رجل برجلٍ، أو امرأة بامرأة مادام ذلك عن تراضٍ بين الأطراف، كما أنَّه أضحى من العار والشنار أن يعلي أحدٌ من شأن الفضيلة والكرامة الإنسانيَّة، ويحول دون سائر سبل إشباع الرغبات الجنسيَّة مادام ذلك يتم من خلال موافقة الأطراف المشاركة!

صحيحٌ أنَّ المدنيَّة الحاضرة كانت ولا تزال تؤمن بهذه الأسس، غير أنَّ الظروف العالميَّة التي كانت سائدةً قبل الحرب العالميَّة الأولى، ما كانت تسمح لإبراز هذه الأسس بالصورة التي برزت بها إبَّان حرب الإبادة للبقية الباقية من المدنيَّة الإسلاميَّة وغيرها من المدنيَّات المناكفة للمدنيَّة الحاضرة في ذلك العصر. وعليه، فإنَّ طرح الإمام يعدُّ من هذا المنطلق طرحًا موضوعيًّا وواقعيًّا ومنهجيًّا في الوقت نفسه، كما أنَّه يعتبر إدراكًا عميقًا بالأبعاد الفكريَّة والاجتماعيَّة والخلقيَّة التي تؤمن بها المدنيَّة الحاضرة، وتسعى إلى فرضها على كافَّة الشعوب المغلوب على أمرها بعد انتصارها الساحق عليها.

على أنَّ الموضوعيَّة والمنهجيَّة والعلميَّة والواقعيَّة في طرح الإمام النورسي ـــ رحمه الله ـــ لا يؤكِّدها التحليل العلميُّ الدقيق لمرتكزات المدنيَّة الحاضرة، وإنَّما يؤكِّدها ويقرِّرها سعيُ المدنيَّة الحاضرة إلى تبني سياسة فرض المبادئ والمقررات على كافَّة شعوب العالم بالقوة والقهر. ولهذا، لم يكن عجيبًا أن يشهد العالم موجات الاعتداء الصارخ على سيادة الدول والأمم، واستعلاء منطق القوَّة على منطق الحكمة، فاستعمرت دول كثيرة من دول العالم، وغدت تجمعات بشريَّة كبيرة تابعةً في فكرها واقتصادها وسياستها لدول المدنيَّة الحاضرة، كما أنَّه لم يكن غريبًا أن ينقسم العالم بعدُ إلى معسكرين متنافسين، معسكر يدافع عن المدنيَّة الحاضرة بكلِّ ما أوتي من قوة فكريَّة وسياسيَّة واقتصاديَّة، ومعسكر آخر (=المعسكر الشيوعي= الاشتراكي) يحاول تقديم نموذجه الفاشل المفلس أخلاقيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا. وبناءً على هذا، فإنَّنا نخلص إلى تقرير القول بأنَّ مراعاة الإمام الموضوعيَّة والواقعيَّة والمنهجيَّة والعلميَّة في صياغة أسس المدنيَّة الحاضرة، هو الذي جعل ما طرحه نموذجًا فريدًا، ينبغي للباحثين في السياسة والتاريخ والمعارف بشكل عامٍّ أن يولوه جانب التفصيل والتوضيح، كما ينبغي تعميق الأبحاث والدراسات في تعريف العالم في العصر الراهن بهذا الطرح العلميِّ المتكامل منهجًا ومضمونًا وواقعًا، ذلك لأنَّه يكاد أن يكون أوفى الطروحات المعاصرة ضبطًا للهدف الأسمى للمدنية، وتحديدًا محكمًا لمنهجها، ودستورها، ورابطتها، وركيزتها التي تستند إليها المدنيَّة الحاضرة. وفضلاً عن هذا كلِّه، فإنَّ طرحه اشتمل على تجانس بين مفرداتها، فالقوة، والصراع، والتزاحم،

والمصلحيَّة، والعنصريَّة، تعدُّ كل أولئك قضايا متجانسة ومتداخلة ومتقاربة، يقود بعضها إلى بعضٍ.

المبحث الثاني:

مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في ضوء الواقع العالميِّ الراهن:

لئن كان ما سبق تحليلاً للأبعاد المنهجيَّة والموضوعيَّة والعلميَّة في طرح الإمام، فإنَّنا نركن إلى اختتام هذا المبحث بنظرة عجلى في الأسس التي عدَّها الإمام ـــ رحمه الله ـــ مرتكزات للمدنيَّة الحاضرة، وذلك من خلال تحرير القول في حقائق تلك الأسس في ضوء واقعنا المعاصر. فبالنسبة للأساس الأول (القوة) الذي عدَّها الإمام ركيزة الحياة الاجتماعيَّة للأمم التي تعتنق هذه المدنيَّة في العصر الراهن، فإنَّ هذا الأساس كان ولا يزال أهمَّ مظهرٍ واقعيٍّ واضحٍ للمدنيَّة الحاضرة التي تؤمن بأنَّ منطق القوة يجب أن يكون حاضرًا في كافَّة الأحوال، كما تؤمن بأنَّه يجب التلويح باستخدام القوة في حالة وجود معارضة لمقرراتها ومبادئها ومناهجها في الفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد. ولهذا، فلا غروَ أن تعدَّ المدنيَّة الحاضرة التوسع في صنع الأسلحة البيولوجيَّة والكيماويَّة، وآلات الدمار الشامل أمرًا ضروريًّا لا تقبل فيه المساومة أو التنازل، بل يجب أن تكون ميزانية الدفاع أكبر ميزانية سواء أعلن عنها أم لم يعلن عنها، إذ إنَّه ليس من الوارد تمكين المدينة الحاضرة من فرض مقرراتها ومبادئها إذا لم تكن ثمة قوة تساندها وتدعمها، ويؤكِّد هذا الأمر أحد رؤساء الولايات المتحدَّة بقوله ".. لكي تمارس الولايات المتحدَّة دورًا قياديًّا، عليها أن تكون قويَّةً، قيادتنا الدوليَّة، وقوتنا الوطنيَّة متكاملتان.."[14]، فهذا الخطاب يوحي بجلاءٍ أنَّ الولايات المتحدَّة وحلفاءها في تبني وحراسة مبادئ المدنية الحاضرة سيكونون عصا غليظةً لمعاقبة كلِّ من يعارض منطلقات هذه المدنيَّة، أو يقف حجر عثرة في طريق ما ترنو إليه من أخلقيَّات ومناهج وأساليب حياة، بل إنَّهم لن يتوانوا عن التلويح باستخدام القوة والعنف في حالة وجود تهديد صاريخ لمرتكزات هذه المدنيَّة بحذافيرها.

وتحقيقًا لهذا الأمر، فإنَّ على الولايات المتحدَّة بوصفها الحامية العظمى الحالية لهذه المدنيَّة، وحلفائها في جميع أنحاء العالم رسم السياسات التي تقوم على الحفاظ على هذه المرتكزات وتقويتها وصيانتها. بل يجب تقوية الآلات والأدوات التي تحقِّق مزيدًا من الاستقرار والقوَّة لهذه المدنيَّة، ومن ثمَّ، فإنَّه يجب الرفع من شأن وكالة الاستخبارات

الأمريكيَّة، وجيش البحريَّة الأمريكيَّة، وحلف ناتو، ووزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة، ومنظمة جيش السلام، والوكالة الأمريكيَّة للاتصال العالميِّ، وحلف ناتو، بوصفها كلِّها منظَّمات ومؤسَّسات ضروريَّة لاستمراريَّة هذه المدنيَّة في استعلائها واستكبارها وطغيانها في الأرض.[15].

إنَّ الأحداث الأخيرة التي مرَّ بها العالم في العقد الأخير من القرن المنصرم، تمثِّل تطبيقًا حيًّا لهذا الأساس، ذلك أنَّ المدنيَّة الحاضرة، لم تتوان في استخدام قوتها في القضاء المبرم على بعض القوى المعارضة لمبادئها في أوروبا الشرقيَّة، كما أنَّها دفعت بجيوشها وجحافلها إلى منطقة الخليج للقضاء على قوة عسكريَّة ناشئة متمردة كانت ترنو إلى منافستها في السيطرة والاستعلاء والاستكبار، ولا يزال منطق القوَّة منطقًا حيًّا حاضرًا في كافَّة سياسات المدنيَّة الحاضرة، ولعلَّ الأحداث الأخيرة في أفغانستان وسواها تصبُّ في هذا الإطار، وتؤكِّد أنَّ القوَّة كلَّ القوَّة ركيزة للمدنيَّة الحاضرة.

وأما الأساس الثاني للمدنيَّة الحاضرة، فإنَّه يقوم على تقديم المنفعة والمصلحة على كلِّ شيءٍ، كما أنَّها تبني علاقتها على المصالح دون سواها، ولذلك، فلا عجب أن تتبدَّل مبادئها وتوجهاتها وعلاقاتها بتبدل المصالح وتغيرها، بل لا عجب أن يتحوَّل صديق اليوم إلى عدو الغد، وعدو الغد إلى صديق حميمٍ بمجرد تغير المصالح وتبدلها، وفضلاً عن ذلك، فإنَّ الحفاظ على المصالح والمنافع، هو الذي يدفع بهذه المدنية إلى إثارة البغضاء والكراهيَّة بين الأغنياء والفقراء، وتعميق مشاعر الحقد والحسد والشحناء والشنعاء بين مختلف الطبقات، ولا تزال حماية المنافع والمصالح أهمَّ محور يعتمد عليه في معرفة الصديق والعدو في المدنية الحاضرة، وفي هذا يقول الدكتور الجابري في كتابه قضايا في الفكر المعاصر: ".. الغرب (يقصد المدنيَّة الحاضرة) مصالح، ولا شيء غير المصالح. وكلُّ حوارٍ معه، أو تفكير ضدَّه لا ينطلق من المعادلة التالية (الغرب= المصالح) إنَّما هو انـــزلاقٌ وسقوطٌ في شباك الخطاب المغالطي التمويهيِّ السائد في الغرب، والهادف إلى صرف الأنظار عن "المصالح" وتوجيهها إلى الانشغال بما يخفيها، ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العامِّ، مثل "الحضارة" و"الثقافة" و"الدين" و"الأصوليَّة"..".[16].

إنَّ التعرف على هذا الأساس في ضوء الواقع الراهن لا يحتاج إلى تكلف، ذلك أنَّ العالم يشهد يومًا بعد يومٍ تحولا في سياسات مهندسي المدنية الحاضرة تجاه الشعوب والدول، فبالأمس القريب كانت روسيا عدوًّا لدودًا، وكانت ثمة حرب وهميَّة قائمة

تسمَّى بالحرب الباردة.. وأما اليوم، فقد أصبح ذلك العدو والخصم العنيد اللدود صديقًا مقرَّبًا يغازل معتنقي المدنيَّة الحاضرة، ويتقرَّب ويتودَّد إليهم. وأما أعداء المدنيَّة الحاضرة في البلقان بالأمس، فقد أضحوا جميعًا أصدقاءَ مقرَّبين، يسعون جاهدين إلى تمثل سائر القيم والمبادئ التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة. والأيام حبلى بمزيد من علاقات التقارب والتفاهم والتواصل بين المدنية الحاضرة والعدد القليل المتبقي من أعدائها التقليديين في الصين وكوريا الشماليَّة وسواهما.

إنَّ هذا التحول برمَّته يعود إلى تبدل المصالح والمنافع وتغيرها، كما يعود إلى تمكن المدنيَّة الحاضرة من تدويل مبادئها وفرضها بالقوة على الشعوب والأمم، فضلاً عن عجز سائر المدنيَّات المنافسة من توفير ما توفِّره من إمكانات ماديَّة هائلةٍ، ومن قوَّة عسكريَّة مهولةٍ، لا قبل لأحدٍ بها !

وأما بالنسبة للأساس الثالث، وهو الصراع والتصادم، فإنَّه يكاد أن يكون نتيجة حتميَّة للأساسين الأول والثاني، ذلك أنَّ القوة تغري صاحبها في الاعتداء، فالاصطدام مع الآخر، كما أنَّ االحرص التامِّ على المنفعة وتقديمها على التكامل والتعاون، يقود إلى محاربة سائر الأمم والحضارات والشعوب التي تعترض سبيل المدنيَّة، وتقف عثرة في طريق مصالحها ومنافعها. فالمدنية الحاضرة لا تقبل ـــ بأيِّ حالٍ من الأحوال ـــ بوجود أيَّة مدنيَّة أخرى بجانبها، كما أنَّها لا تؤمن بشيء اسمه الحوار بين المدنيَّات أو ما يطلق عليه اليوم بحوار الحضارات والأديان.. بل إنَّ المدنيَّة الحاضرة كانت ولا تزال ترى في سائر المدنيَّات شؤمًا ووبالاً عليها، لذلك، تبذل الغالي والرخيص من أجل القضاء على كافَّة المدنيَّات، أو بقية الباقية من المدنيَّات التي كانت قائمة ذات يوم، حفاظًا على وجودها وبقائها، وتحقيقًا لمزيد من المكاسب والمنافع.. وإنَّه ليس بخافٍ أنَّ هذا الأساس كان ولا يزال يقف أحد الأسباب الرئيسة وراء العديد من الحروبٍ والصراعات والنـــزاعات العالميَّة، وما حرب أولى القرون أعني حرب أفغانستان وقبلها حرب الخليج عنَّا ببعيد. فلئن وضعت الحرب الباردة أوزارها بين المدنيَّة الحاضرة والمعسكر الاشتراكي والشيوعيِّ، وذلك نتيجة الإفلاس الخلقيِّ والماديِّ والفكريِّ للمعسكر الاشتراكي والشيوعيِّ المنافس القديم، فإنَّ حربًا بل حروبًا قامت وستقوم بين هذه المدنيَّة الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة الآخذة في النمو والتي توشك أن تحلَّ محلَّ المعسكر الاشتراكيِّ المفلس في معظم الأقطار. وبطبيعة الحال، لن تتوانى المدنيَّة الحاضرة من استخدام كافة قواها

وإمكاناتها الماديَّة والفكريَّة والاقتصاديَّة في الحيلولة دون قيام مدنيَّة أخرى منافسة وخاصَّة إذا كانت تلك المدنيَّة تحمل الأقوم والأرشد من المبادئ والأفكار والمناهج التي عرفتها البشريَّة، كما تقوم على نقيض الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة. وعليه، فإنَّني لعلى يقينٍ تامٍّ بأنَّ واقعنا المعاصر سيشهد مزيدًا منن المناورات والتهديدات والتدميرات للعديد منً الشعوب والأمم التي ترنو إلى الالتجاء بالمدنيَّة الإسلاميَّة وإحيائها، والتبرؤ من المدنيَّة الحاضرة التي جلبت ولا تزال تجلب للعالم المزيد من الشقاء والتعاسة والفقر والحروب.

وأما بالنسبة للأساس الرابع، وهو العنصريَّة، فإنَّه يشكِّل أحد أهمِّ المحاور والأسس والمنطلقات التي تقوم عليها المدنية الحاضرة، وتحاول مراعاتها في سائر سياساتها وبرامجها وإستراتيجياتها، فالجنس الأبيض المتمدن بهذه المدنيَّة هو الذي ينبغي تقديمه على جميع الأجناس غير البيضاء وغير المتمدنة بهذه المدنيَّة، كما أنَّ الحظوة والمكانة العليَّة في كافَّة الأمور والأشياء يجب أن تكون لذلك الجنس، وأما بقية الأجناس ومن لا يؤمن بهذه المدنيَّة، فإنَّه لا بدَّ من تحويلهم أو القضاء عليهم في حالة تعذر إمكانيَّة تغييرهم وتحويلهم. وتحقيقًا لهذا، فإنَّ العالم عاش ولا يزال يعيش مزيدًا من الصراع الطبقيِّ، وفي هذا يقول الإمام النورسي ".. إنَّه بسبب التعصب العنصريِّ والأنانيَّة التي نشأت في هذا العصر العاصف من المدنيَّة الغادرة، والدكتاتوريَّة العسكريَّة التي أعقبت الحرب العالميَّة، وما أفرزته الضلالة من القسوة، وعدم الرحمة، ساد أشد أنواع الظلم، وأشدَّ أنواع الاستبداد.."[17].

إنَّ العالم كان ولا يزال يعايش توسعًا واضحًا في تغليب العنصريَّة على روح الأخوة، ولا يزال الجنس الأبيض هو المسؤول الأول عن رسم سياسات الأمم والشعوب، وهو المتحكم في مصائر الشعوب ومقدَّراتها وإمكاناتها.. وكلُّ ما عدا هذا الجنس الأبيض، فإنَّه لا قيمة له في المدنية الحاضرة..وإنَّ حركات الاستعمار والاستعباد التي طالت جميع شعوب العالم وخاصَّة الشعوب المعارضة للمدنيَّة الحاضرة في القرن التاسع عشر الميلاديِّ وما بعده، استهدفت تأصيل هذا المرتكز وتعميقه، حيث إنَّ الجنس الأبيض جال وصال في جميع أرجاء المعمورة، واستعبد الناس، واستولى على ممتلكاتهم وخيراتهم، وتحكَّم في مصائرهم ومقدَّراتها، واعتدى على الكرامة الإنسانيَّة لغير الجنس الأبيض.. ولا تزال العنصريَّة كل العنصريَّة تشكِّل عمودًا فقريًّا للمدنية الحاضرة حيث إنَّها تسعى بكل

وسائلها وأجهزتها إلى إرساء قيم الجنس الأبيض، والقضاء على قيم بقية الشعوب والأمم.

وبالنسبة للأساس الخامس، وهو تشجيع الهوى واللهو العابث إلهاءً للشعوب تمهيدًا لتسهيل السيطرة عليها والتحكم فيها، فهذا الأساس يراه كلُّ ذي عينين في السياسات التي تدعو إليها هذه المدنيَّة على مستوى نشر الرذائل، وتشجيع الإباحيَّة، وإسقاط الإنسان إلى درك الحيوانيَّة، وحثِّ الفساد والانحلال الخلقيِّ على كافَّة الأصعدة، وتقنين جميع الممارسات التي تشجِّع الهوى، وتزيد الشعوب المغلوب على أمرها غفلةً وتقهقرًا وتأخرًا. وليس ببعيد عنَّا قرارات تقنين حالات الشذوذ الجنسيِّ والخلقيِّ التي توشك أن تجتاح جميع أنحاء الدول التي تتحكم فيها هذه المدنيَّة الحاضرة. بل إنَّ الدول والحكومات التي تعترض سبيل الانحلال الخلقيِّ، والفساد الاجتماعيِّ، والشذوذ الجنسيِّ، تعدُّ ـــ في نظر المدنيَّة الحاضرة ـــ حكومات دكتاتوريَّةً فاسدةً يجب التخلص منها، وإبدالها بحكومات موالية تقاسم ذات المبادئ والاتجاهات!

وبطبيعة الحال، لا يخفى على أحد الواقع العالميِّ المرير والمتأزم للأخلاق والقيم في ظلِّ سيطرة المدنيَّة الحاضرة، كما أنَّه غدا من الواضح للعيان تفنن تلك المدنيَّة في صنع الأدوات والآلات التي تزيد من الانحلال الخلقيِّ، وتجعله جزءً لا يتجزأ من حياة كافَّة الشعوب، ولم يعد ثَمَّة سياجٌ للحيلولة دون بسط هذا التوجه الخلقيِّ لهذه المدنيَّة على كافَّة الأصعدة. وإنَّ السياج الأوحد والحصن الحصين للبشريَّة اليوم هو قيم المدنيَّة البديلة، إنَّها المدنيَّة الإسلاميَّة التي تسمو بالروح، وتهذِّب النفس، وترفع بالإنسان من دركات الحيوانيَّة إلى درجات الكمال الإنسانيِّ والترقي الروحيِّ والاجتماعيِّ والفكريِّ.

هذه هي أهمُّ الأبعاد التي اشتمل عليها الطرح النوريُّ لمرتكزات المدنيَّة الحاضرة، وقد رأينا جليًّا أنَّه توفر على الموضوعيَّة والمنهجيَّة والعلميَّة والواقعيَّة، مما يجعل طرحه طرحًا فريدًا في منهجه، وعميقًا في مضامينه، وفذًّا في أبعاده وغاياته. وعسى الله أن يمنَّ علينا بفيض رحمته، فنعود عودةً حميدةً إلى مزيد من التحليل والتحقيق العلميِّين لهذا الطرح النوريِّ الشامل المتكامل. وبما أنَّ الحديث عن مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في المنظور النوريِّ، لا يمكن له أن يكون متكاملا ما لم يتمُّ كشف الغطاء عن مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة من منظوره، ولذلك، فإنَّنا نرى أن نودع في المبحث التالي عرضًا وتحليلاً لمرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة التي يعبَّر عنها اليوم في أروقة الباحثين المعاصرين بمرتكزات

الحضارة الإسلاميَّة، وهذا عرض موجز لتلك المرتكزات وتحليل مختصر لمحتوياتها علمًا بأنَّ غاية هذه الورقة تتمركز حول مرتكزات المدنية الحاضرة.

المبحث الثالث

مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة في رسائل النور: عرض وتحليل موجزين

لئن أوسع الإمام النورسي أسس المدنيَّة الحاضرة جانب التأصيل والتحقيق بصورة علميَّة ومنهجيَّة وواقعيَّة فذَّة، فإنَّه حرص أن يعقب عرضه وتحليله لتلك الأسس بعرض وتحليل مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة أو مدنيَّة القرآن الكريم، بوصفها المدنيَّة الأساس والأمَّ من جهة، وبوصفها المدنيَّة التي ينبغي للبشريَّة الالتجاء إليها والاحتماء بها في ظل الظروف العالميَّة الراهنة من جهة أخرى. وكأنِّي بالإمام يحاول أن يعقب نقده العلميَّ الرصين للمدنيَّة الحاضرة بتقديم أسس المدنيَّة البديل الأكمل والأشمل روحًا، ومنهجًا، ومضمونًا، ومآلاً.

أولاً: في عرض أسس المدنيَّة الإسلاميَّة من المنظور النوري:

تعرض الإمام النورسي ـــ رحمه الله ـــ بالإشارة إلى أهمِّ الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الإسلاميَّة، وذلك في عدد من كتبه ورسائله. ففي كتابه الكلمات، ذكر أهم هذه الأسس بقوله ".. إنَّه لا ميزان في الأرض غير ميزان الشريعة. إنَّها رحمة مهداة نـــزلت من سماء القرآن العظيم.. أما أسس مدنيَّة القرآن الكريم، فهي إيجابيَّة، تدور سعادتها على خمسة أسس إيجابيَّة. نقطة استنادها: الحق بدل القوَّة، ومن شأن الحقِّ دائمًا: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء. وهدفها: الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة: المحبَّة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة، وتزول العداوة. دستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات. وخدمتها للمجتمع: بالهدى بدل الأهواء والنوازع، وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق بع مع تنوير الروح، ومدِّها بما يلزم. رابطتها بين المجموعات البشريَّة: رابطة الدين والانتساب الوطني، وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان، وشأن هذه الرابطة: أخوة خالصة، وطرد العنصريَّة، والقوميَّة السلبيَّة. وبهذه المدنيَّة يعم السلام الشامل، إذ هو موقف الدفاع ضدَّ أي عدوان خارجيٍّ.."[18]

وفي كتاب صيقل الإسلام، تناول أسس المدنيَّة الإسلاميَّة بصورة أكثر تفصيلاً وتوضيحًا، فقال ما نصُّه: ".. أما المدنيَّة التي تأمرنا بها الشريعة الغرَّاء، وتتضمنها، فهي

التي ستنكشف بانقشاع هذه المدنيَّة الحاضرة، وتضع أسسًا إيجابيَّة بنَّاءَةً مكان تلك الأسس النخِرَة الفاسدة السلبيَّة. نعم. إنَّ نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوَّة. والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المحبَّة والتجاذب. وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشريَّة: الرابطة الدينيَّة، والوطنيَّة، والمهنيَّة بدلاً من العنصريَّة. وهذه شأنها: الأخوَة الخالصة، والسلام، والوئام، والذود عن البلاء عند اعتداء الأجانب. ودستورها في الحياة: التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه: التساند والاتحاد. وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكمًا على الخدمات التي تقدَّم للبشر، وشأن الهدى: رفع الإنسانيَّة إلى مراقي الكمالات، فهي ـــ إذًا ـــ تحدِّد الهوى، وتحدُّ من النـــزعات النفسانيَّة، تطمئن الروح، وتشوِّقها إلى المعالي.."[19].

وأما كتاب المكتوبات، فقد أوجز فيه الإمام هذه الأسس بصورة مركَّزة، فقال ما نصُّه: "..أما المدنيَّة التي تتضمنها الشريعة الأحمديَّة، وتأمر بها: فإنَّ نقطة استنادها: الحق بدلاً من القوَّة، والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المودَّة والتجاذب. جهة الوحدة فيها: الرابطة الدينيَّة، والوطنيَّة، والصنفيَّة، بدلاً من العنصريَّة والقوميَّة، وهذه الرابطة من شأنها: الأخوة المخلصة، والمسالمة الجادَّة، والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي. دستورها في الحياة: التعاون بدلاً من الجدال والصراع، والتعاون من شأنه: الاتِّحاد والتساند. وتضع الهدى بدلاً من الهوى، والهدى من شأنه: رفع الإنسان روحيًّا إلى مراقي الكمالات.."[20]. هذه هي أهمُّ النصوص التي أودعها الإمام أسس المدنيَّة التي تدعو إليها الشريعة الإسلاميَّة، وتحثُّ عليها، وقد عني في معظم كتبه ورسائله بتفصيل القول في هذه الأسس بصورة علميَّة مركَّزة.

ثانيًا: في تحليل مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة من المنظور النوريِّ:

لئن سبق أن أبدينا الأبعاد العلميَّة والمنهجيَّة والموضوعيَّة في حديث الإمام عن مرتكزات المدنيَّة الحاضرة، فإنَّنا نرى أنَّ ذات الأبعاد تنطبق على حديثه عن مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة، فالتوقيت الزمني لتناول هذا الموضوع في غاية من الأهميَّة، وخاصَّة أنَّ بقية الباقية من الخلافة الإسلاميَّة كانت على حافة الانهيار التامِّ، وعاجلت أحداث الحرب العالميَّة الأولى بزوالها، وتدميرها من قبل القوى التي كانت تتربص بها الدوائر،

وتنخر في عظامها، وتكيد المكائد من أجل القضاء المبرم عليها.. وفعلاً تمكنت تلك القوى من أن تنال مبتغاها، ويشير الإمام النورسي ـــ رحمه الله تعالى ـــ إلى هذا البعد في مقدِّمة حديثه عن أسس المدنيَّة الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة، فيقول ما نصُّه: ".. قال أحدهم ـــ يقصد محاوره في رؤياه ـــ: ماذا ترى في عاقبة هذه الهزيمة التي آلت إليها الدولة العثمانيَّة، وماذا كنت تتوقع أن يؤول إليه أمر الدولة العثمانيَّة لو قدِّر لها الانتصار؟ قلت: إنَّ المصيبة ليست شرًّا محضًّا، فقد تنشأ السعادة من النكبة والبلاء، مثلما، قد تفضي السعادة إلى بلاء.. فهذه الدولة الإسلاميَّة التي أخذت على عاتقها ـــ سابقًا ـــ القيام بفريضة الجهاد ـــ فرضًا كفائيًّا ـــ حفاظًا على العالم الإسلاميِّ، وهو كالجسد الواحد، ووضعت نفسها موضع التضحية والفداء لأجله، وحملت راية الخلافة إعلاءً لكلمة الله، وذودًا عن استقلال العالم الإسلاميِّ.. ستعوِّض عما أصابتها من مصيبة، وستزيلها السعادة التي سوف يرفل بها عالم الإسلام؛ إذ عجَّلت هذه المصيبة بعث الأخوة الإسلاميَّة ونماءها في أرجاء العالم الإسلاميِّ، تلك الأخوة التي هي جوهر حياتنا وروحنا.."[21].

في خضم تكالب الأعداء، وتطلع المغلوبين إلى تقليد الغالبين ومحاكاتهم في معتقداتهم ومناهجهم وأساليب حياتهم، لا بدَّ من حديثٍ علميٍّ مفصَّل عن البديل الإسلاميِّ للواقع الذي أقبل على العالم الإسلامي بجحافله وجيوشه وأخلاقه، ولا بدَّ لهذا الحديث من أن يكون حديثًا علميًّا قائمًا على مقارعة الحجَّة بالحجَّة، وربط الأسباب بمسبباتها، بعيدًا عن المثاليَّة والعواطف والحماسة. وعليه، فإنَّ توقيت الإمام هذه الفترة الزمنيَّة للحديث عن مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة بجانب حديثه عن مرتكزات المدنيَّة الحاضرة، لا يعدو أن يكون تأكيدًا وتقريرًا للالتزام بالواقعيَّة والعلميَّة والمنهجيَّة في الطرح والتحليل والتحقيق.

على أنَّ واقعيَّة الإمام في طرحه، وموضوعيَّته في تحليله لم تتوقف على مراعاة التوقيت الزمنيِّ المناسب، وإنَّما تجاوزت لتشمل واقعيَّةً وموضوعيَّةً في ضبط مضامين الأسس التي لخَّص فيها مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة، إذْ إنَّه لم يكتف بالإشارة إلى تلك الأسس، وإنَّما أصَّل القول في آثار تلك الأسس على المدنيَّة هدفًا ودستورًا وغايةً ومنهجًا وركيزةً.

فبالنسبة للأساس الأول" الحق" بدلاً من القوَّة، فإنَّه يبعد عن المدنيَّة الإسلاميَّة الظلم والاعتداء على الآخرين، ويجعلها مدنيَّة قائمةً على العدالة التي تعني توفِّر الأمن والسلام للضعفاء، وتأخذ حقَّهم من المظلومين المعتدين، بل إنَّها تكسو المدنيَّة توازنًا وانضباطًا

وترابطًا، إذْ إنَّه ما اختلت العدالة في مجتمع إلا انتعش فيه الظلم، واختل توازنهم، واضطربت أمورهم، مما يعجِّل بزواله.

وأما بالنسبة للأساس الثاني، وهو حراسة الفضيلة وحمايتها ضدَّ النفعيَّة والمصلحيَّة، فإنَّ هذا الأساس يعدُّ هو الآخر أهمَّ ركنٍ خلقيٍّ في المدنيَّة، لأنَّه تقود إلى إشاعة المحبَّة والتواصل والإيثار، كما ينتج عنها زوال الحقد والطبقيَّة والبغضاء والكراهيَّة بين أفراد المجتمع.. مما يعني أنَّ ما نراه اليوم من تقاتل وتزاحم وتدافع، وارتفاع في الجرائم، يعود كلُّ ذلك إلى غياب الفضيلة والنـــزاهة، وغلبة الجشع والطمع وحب المال على النفوس.

وأما بالنسبة للأساس الثالث، وهو الرابطة الدينيَّة والوطنيَّة والمهنيَّة، فإنَّه يشكِّل ركنًا أساسيًّا في بقاء المدنيَّات ودوامها واستمرارها، ذلك أنَّ المدنية التي تقوم على العنصريَّة والتعصب، مآلها الزوال، والاندثار، لأنَّها تتناقض مع السنة الكونيَّة المتمثلة في جعله الناس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ويتعاونوا ويتكاملوا مصداقًا لقوله تعالى (**يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير**) الحجرات: 13، كما أنَّها تناهض الإرادة الإلهيَّة في أنَّه ــ جلَّ جلاله ــ جعل من آياته اختلاف الألسنة والألوان مصداقًا لقوله تبارك وتعالى (**وَمِنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَاخْتلَافُ أَلْسنَتكُمْ وَأَلْوَانكُمْ إنَّ في ذَلكَ لآيَات للْعَالمينَ**) الروم: 22. وانطلاقًا من هذه الإرادة الإلهيَّة الخالدة، فإنَّ المدنيَّة الإسلاميَّة تقرُّ بالروابط الدينيَّة، كما تحافظ على الروابط المهنيَّة، والروابط الوطنيَّة، ولا ترى في هذه الروابط نوازع للاعتداء على الآخرين، وإجبارهم على الانصياع لأوامرها، وبدلاً من ذلك، فإنَّها تعتبر تلك الروابط عوامل قوة، وتساند، وتعاون، وتكافلٍ لمصلحة الإنسانيَّة برمَّتها. والتاريخ خير شاهد على التسامح والتواصل الذي تميَّزت بها المدنيَّة الإسلاميَّة يوم أن كان لها حضورٌ في الأندلس، وفي تركيا، والعراق والشام، فقد آمن في ظلِّها النصراني على نصرانيَّته، واليهودي على يهوديَّته، كما شاعت المحبة والتواد والإيثار بين مختلف الشعوب وأصحاب الأديان الذين كانوا يعيشون في ظلِّها.

وبالنسبة للأساس الرابع، وهو تقديم التعاون والتساند على الصراع والجدال والخصام، فهذا الأساس سمَّة أساسيَّة لعقيدة الإسلام، ذلك أنَّ الأصل في العلاقة بين المسلم وغيره هو السلم، وأنَّ الدماء والأعراض والأموال حرامٌ في الأصل، ولا ترتفع الحرمة عنها إلا لأسباب شرعيَّة معتبرة ومعروفة، فالإسلام لا يبيح للمسلم أن يقتل غيره لكونه مخالفًا له في العقيدة، كما أنَّه يحرم على المسلم الاعتداء على غير المسلم في ماله

ودمه وعرضه لمجرد مخالفته إيَّاه.. وبدلاً من ذلك، فإنَّه يأمر بالتعاون والإنصاف مع الجميع، وأن لا يلجأ إلى العنف أو القتل تحت طائلة الجهاد، فالجهاد المسلَّح في الإسلام دفاعيٌّ، وليس هجوميًّا، ولا يحتاج إثبات هذا الأمر إلى مزيد بيان لجلائه في كافَّة النصوص القرآنيَّة الآمرة بالجهاد. وعليه، خلافًا لما تزعمه المدنية الحاضرة من كونها مدنيَّة تؤمن بحوار الأديان، والحضارات، في الوقت الذي تنكل فيه بالمخالفين نكالاً، وتسعى إلى إبادتهم بشتى الطرق والوسائل. وأما المدنيَّة الإسلاميَّة، فإنَّ دستورها في الحياة ومنهجها في التعامل، هو التعاون والتساند والترابط بين البشر، والابتعاد عن الصراع وجميع أسبابه.

وأما بالنسبة للأساس الخامس، وهو جعل الهدى نبراسًا يهتدى به في ظلمات الحياة، ويلاذ به أمام جميع مغريات الدنيا ومتعها الفانية، فإنَّ هذا الأساس يمثِّل في حقيقته سياجًا ضروريًّا، وحصنًا حصينًا لكافَّة الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الإسلاميَّة، ذلك لأنَّه يعدُّ بمثابة مصدر إشعاع وإرشاد للمدنيَّة، وليس من مرية في أنَّ افتقار المدنيَّة الحاضرة إلى مصدر إشعاع وإرشاد هو الذي دفع بها إلى التورط في كافَّة صور الانحلال الخلقيِّ، والانحطاط القيميِّ، ذلك لأنَّها ـــ كما قررنا سابقًا ـــ لا توجد لها مرجعيَّةٌ تحدِّد لها صالح الأخلاق والقيم من فاسدها، ولأنَّها تفتقر افتقارًا واضحًا إلى مصدرٍ يضبط لها حركة النفس الأمَّارة، ويحدُّ من رغباتها وغلوائها، وميلها الجارف إلى الانحلال والتفسخ والتناحر والتبذل. وأما المدنيَّة الإسلاميَّة التي تقوم على الالتزام التامِّ بمقررات المرجعيَّة التي ترتدُّ إلى الهدي الإلهيِّ، فإنَّها تنبذ جميع صور الانحلال الخلقيِّ، وترفض كافَّة أشكال الانحطاط الفكريِّ أو الأخلاقيِّ، مما جعلها مدنيَّة واقعيَّةً متكاملةً ومتوافقة مع الفطرة السليمة التي فطر الله عليها الناس.

ومهما يكن من شيء، فإنَّنا نخلص ـــ مما سبق ـــ إلى تقرير القول بأنَّ طرح الإمام لمرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة، توفَّرت فيه ـــ هو الآخر ـــ الموضوعيَّة والمنهجيَّة والعلميَّة والواقعيَّة، مما يجعله طرحًا علميًّا جديرًا بأن يعتنى به من لدن المهتمين بالدراسات العلميَّة المتخصِّصة عن الحضارة الإسلاميَّة. وبهذا نصل إلى نهاية هذه الورقة، وأملنا أن نكون قد وفِّقنا في عرض أهمِّ أفكار الإمام وتحليلاته. .

نتائج الدراسة:

جرت العادة الأكاديميَّة أن يختتم الباحث بحثه بتلخيص أهمِّ النتائج التي توصل إليها، والتزامًا بهذه العادة، أُراني ملخِّصًا أهمَّ نتائج هذه الدراسة:

أولاً: عنيت الدراسة بعرض عددٍ من تعريفات المدنيَّة الحاضرة، والمدنيَّة الإسلاميَّة، وتوصلت الدراسة إلى تعذر وجود تعريفٍ علميٍّ دقيقٍ متفق عليه للمدنيَّة الحاضرة، أو المدنيَّة الإسلاميَّة، ومالت الدراسة إلى اعتبار ما ذكره الدكتور نصر عارف في كتابه تصورًا عامًّا عن أهمِّ الأهداف التي ترنو إليها المدنيَّة الإسلاميَّة، ولكنَّه لا يعتبر بأي حالٍ من الأحوال تعريفًا للمدنيَّة الإسلاميَّة التي يعبِّر عنها معظم الكتَّاب المعاصرين بالحضارة الإسلاميَّة.

ثانيًا: عرضت الدراسة أهمَّ الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة من المنظور النوريِّ، وتتلخص تلك الأسس في خمسةٍ، وهي: القوة بوصفها ركيزة الحياة الاجتماعيَّة، والنفعيَّة بوصفها الهدف الأعظم للمدنيَّة، والصراع بوصفه الدستور الذي يحرِّك المدنيَّة الحاضرة، والعنصريَّة باعتبارها المحور الذي يستند إليه في توجيه العلاقات والروابط، وأما الأساس الخامس، فهو تشجيع الرذيلة وتلبية رغبات النفس الأمَّارة. وقد بذلت الدراسة ما وسعها من جهدٍ في تتبع هذه الأسس في كتابات الإمام النورسي المختلفة، وانتهت إلى قناعة بأنَّ الإمام النورسي نذر جزءً كبيرًا من رسائله وكتبه ومؤلفاته لتأصيل القول في هذه الأسس، وتعريف الأجيال القادمة بها وبدورها في سائر تحركات المدنيَّة الحاضرة.

ثالثًا: قامت الدراسة بتحليلٍ علميٍّ موضوعيٍّ منهجيٍّ لأسس المدنيَّة الحاضرة كما طرحها الإمام النورسي في مؤلَّفاته ورسائله وكتبه، وتوصلت الدراسة إلى القول بأنَّ طريقة الإمام في طرح هذه الأسس، توفرت فيها الموضوعيَّة، والواقعيَّة، والعلميَّة، فضلاً عن الالتزام التامِّ بالمنهج المتواتر عليه عند دارسي تاريخ الأفكار والأحداث والوقائع. مما جعل طرحه طرحًا علميًّا ثريًّا في مبناه، وغنيًّا في محتوياته، وفذًّا في أسلوبه، وفريدًا في منهجيته. وبيَّنت الدراسة أنَّ واقعيَّة الإمام في طرحه لا تتوقف على دقَّة اختياره التوقيت الزمنيَّ الأليق بمثل هذه الطروحات، وإنَّما تتجلَّى في تحليلاته العلميَّة الموفَّقة لغايات وأهداف المدنيَّة الحاضرة، الأمر الذي ينبغي أن يوليه الباحثون في الفكر الحضاريِّ المعاصر جانب الاهتمام والتحقيق والدراسة الجادَّة القادرة على الكشف عن الأبعاد المنهجيَّة الكامنة في هذا الطرح الثرِّ.

رابعًا: أوضحت الدراسة أنَّ نقد الإمام للمدنيَّة الحاضرة لم يكن نقدًا جزافًا تعسفيًّا، ولم يكن رفضًا مطلقًا لجميع جوانب هذه المدنيَّة، وإنَّما كان نقده إيَّاها نقدًا مركَّزًا للأسس السلبيَّة الغالبة التي تحرِّك هذه المدنيَّة، وتؤثِّر فيها أيَّما تأثير، ويعني هذا أنَّ الإمام لم يكن ممن ينكر وجود محاسن لهذه المدنيَّة، بل كان كثير الحثِّ على الاستفادة من محاسنها وإيجابيَّاتها المختلفة، وقد أكَّد في أكثر من موضع على أهميَّة الاستفادة من الجوانب العلميَّة في هذه المدنيَّة، أسوةً باليابانيين الذين أخذوا بأسباب الترقي في هذه المدنيَّة مع الحفاظ التامِّ على مقوِّماتهم وثقافتهم دون تمييع أو انحراف. وبناءً على ذلك، أكَّدت الدراسة القول بأنَّ نقد الإمام لأسس هذه المدنيَّة بصورة عامَّة ومكرَّرة، يعود إلى ما لاحظه من غلبة مساوئها على محاسنها. مما يعني أنَّ حديثه كلَّ حديثه عن أسس المدنيَّة يتمركز حول أسسها السلبيَّة النكدة، ولا يطال المحاسن والإيجابيّات التي تتوفَّر في هذه المدنيَّة.

خامسًا: بذلت الدراسة جهدها في تقديم تحليل علميٍّ متكاملٍ للواقع الراهن لأسس المدنيَّة الحاضرة من خلال المنظور النوريِّ الذي انتهى إليه قبل قرنٍ من الزمن تقريبًا، وترجَّحت للدراسة أنَّ تلك الأسس لا تزال هي هي، بل تكاد الأحداث العالميَّة المتلاحقة والمتعاقبة تؤكِّد يومًا بعد يومٍ صدق ما ذكره الإمام من وصفٍ دقيقٍ، وتحليلٍ علميٍّ رشيدٍ لهذه المدنيَّة ركيزةً، وهدفًا، ودستورًا، ومنهج حياة. الأمر الذي يجعل طرحه جديرًا كل الجدارة بالدراسات العلميَّة المركَّزة المعمَّقة بوصفه طرحًا ثرًّا وفذًّا وفريدًا.

سادسًا: اعتبارًا بأنَّ الاكتفاء بنقد أسس المدنيَّة الحاضرة دون تقديم البديل لها، لا يعدو أن يكون هدمًا لا من أجل البناء، وإنَّما من أجل العبث، ولهذا، فقد بذلت الدراسة جهدها في إلقاء الضوء على أهمِّ الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة التي يباركها القرآن الكريم من المنظور النوريِّ، وعنيت الدراسة بتتبع طرح الإمام لأسس هذه المدنيَّة الإسلاميَّة، والتي تتلخص في الحقِّ، والفضيلة، والرابطة الدينيَّة والمهنيَّة، والتعاون، والاحتكام إلى الهدي الإلهيِّ في ضبط الأخلاق والقيم. وفضلاً عن ذلك، فقد استفرغت الدراسة طاقتها في تحليل تلك الأسس التي ذكرها الإمام، وبيَّنت توفر الموضوعيَّة والمنهجيَّة والواقعيَّة في طرح الإمام. وتجاوزت الدراسة ـــ عن قصد ـــ عقد مقارنة بين المدنيَّة الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة انطلاقًا من كون الهمِّ الأساس لها، تقديم تحليلٍ علميٍّ موضوعيٍّ لمرتكزات المدنيّة الحاضرة، ولا تهدف إلى عقد مقارنة بين مرتكزات المدنية

الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة، فتلك غاية أخرى، يمكن التصدِّي لها في وقتٍ لاحقٍ بإذن المولى الكريم.

هذه بعض النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة، ويمكن للقارئ أن يقف على سواها أثناء قراءته إيَّاها، وبهذا نصل إلى نهاية عرضنا وتحليلنا لمرتكزات المدنيَّة الحاضرة من المنظور النوريِّ، وأملنا أن نكون قد وفِّقنا في العرض وفي التحليل، وعسى الله أن يغفر لإمامنا، ويكتب لتراثه وأفكاره وإشراقاته الدوام والانتشار ليعم فائدتها، ولتسهم في حلّ كثيرٍ من الأزمات الحضاريَّة والاجتماعيَّة والتربويَّة، وليستعان بها في مواجهة كافَّة النوازل الفكريَّة والسياسيَّة التي تجتاح الأمَّة الإسلاميَّة شرقًا وغربًا. وشكر الله للإخوة القائمين على هذا المؤتمر على كريم دعوتهم، وحسن ضيافتهم، والله المسؤول أن يوفِّقكم لمزيد من المؤتمرات واللقاءات العلميَّة حول أفكار الإمام.

هوامش الدراسة وأهم مراجعها:

1 يفضّل عدد غير قليلٍ من الباحثين في الفكر الحضاريِّ، مصطلح الحضارة على مصطلح المدنيَّة، وتكاد الكتابات الحديثة تكتفي باستخدام مصطلح الحضارة.. غير أنَّنا فضَّلنا استخدام مصطلح المدنيَّة على مصطلح الحضارة باعتبار أنَّ الإمام النورسي آثر مصطلح المدنيَّة على مصطلح الحضارة، ولذلك، فإنَّنا سنتجاوز استخدام مصطلح الحضارة.. مع إيماننا بكون المصطلحين مترادفين نوعًا ما مع وجود بعض الفوارق غير ذات بالٍ بينهما عند بعض المعاصرين.. ولمزيد من المعلومات حول سيرة مصطلح المدنيَّة، والحضارة، والثقافة، يراجع الكتاب القيِّم للدكتور محمد نصر عارف الذي نشره المعهد العالمي للفكر الإسلاميِّ بواشنطن.

2 انظر: ابن خلدون: المقدِّمة ــ تحقيق وافي ــ (القاهرة، دار نهضة مصر، عام 1981م) ص578ــ579.

3 انظر: ول ديورانت: قصَّة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب محمود (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ثانية، عام 1956م) ص3.

4 انظر: عبد الرحمن شهبندر: القضايا الاجتماعيَّة الكبرى في العالم العربي (القاهرة، مطبعة المقتطف، عام 1963م) ص35

5 انظر: محمد قدري: رسالة جليلة في التمدن (القاهرة.. طبعة عام 1287هـ)

6 انظر: نصر محمد عارف: الحضارة، الثقافة، المدنية: دراسة في سيرة المصطلح ودلالة المفهوم (واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبعة أولى، عام 1994م) ص59.

7 انظر: بديع الزمان النورسي: الكلمات ــ ترجمة إحسان قاسم الصالحي (أستانبول، دار سوزلر، طبعة أولى عام 1992م) ص472.

8 انظر: بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام ــ ترجمة إحسان قاسم الصالحي (أستانبول، دار سوزلر، طبعة أولى عام 1995م) ص357

9 انظر: بديع الزمان النورسي: المكتوبات ــ ترجمة إحسان قاسم الصالحي (أستانبول، دار سوزلر، طبعة أولى عام 1992م) ص607.

10 انظر: صيقل الإسلام ــ مرجع سابق ــ ص399–400 باختصار.

11 انظر: محسن عبد الحميد: النورسي متكلم العصر الحديث (القاهرة، سوزلر للنشر، مدينة نصر) ص200–201 باختصار.

12 انظر: صيقل الإسلام ــ مرجع سابق ــ ص355–357 بتصرف واختصار.

13 انظر: صيقل الإسلام ــ مرجع سابق ــ ص358–359 بتصرف واختصار.

14 انظر: باتريك هرمان: العالم حسب بوش، ميلاد نظام عالميٍّ جديد في القانون الدوليِّ وسياسة المكياليين ــ تعريب أنور مغيث (الجماهيرية العربيَّة الليبيَّة، الدار الجماهيريَّة، طبعة عام 1995م) ص33 وما بعدها.

15 انظر: عبد الحميد حمودة: أهم الأدوات الأمريكيَّة لغزو العقل العربيِّ، مجلة الثقافة العربيَّة، عدد 6، يونيو عام 1997م.

16 انظر: الجابري: قضايا في الفكر المعاصر (بيروت، مركز دراسات المستقبل العربي، طبعة أولى عام 1997م) ص128.

17 انظر: النورسي: الشعاعات (...) ص346.

18 انظر: الكلمات. ص855–856 باختصار.

19 انظر: صيقل الإسلام. ص359

20 انظر: المكتوبات. ص607.

21 انظر: صيقل الإسلام. ص355–356 باختصار وتصرف.